عروبة أيوب عثمان*

حينما كنّا عربًا: تاريخٌ منسيٌّ لعائلة يهوديّة

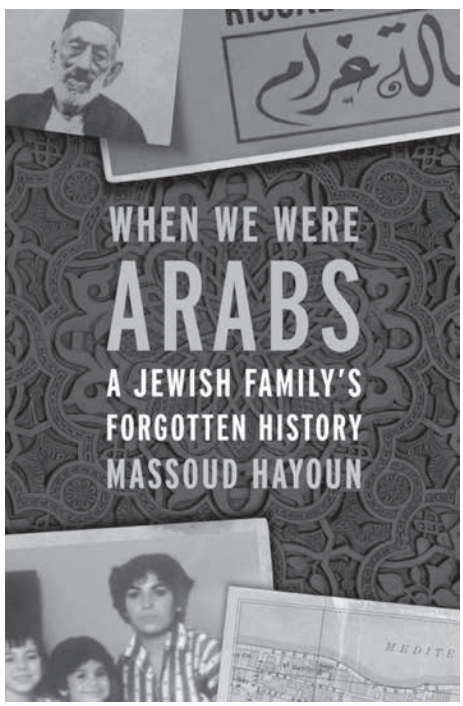

إنّ موضوعة الهويّة اليهوديّة العربيّة، والتحوّلات العاصفة التي أعادت تشكيلها انطلاقًا من زمنيّة الحرب العالميّة الثانيّة، بما حملت من سياسات طمسٍ صهيونيّةٍ لإمكانات التوافُق في الانتماء بين العروبة واليهوديّة، تمثّل الشاغلَ المركزيَّ لكتاب "حينما كنّا عربًا: تاريخ منسيّ لعائلة يهوديّة" لمسعود حيون. تنبع أهمية الكتاب من كونه ممارسًا فعلَ التذكّر لذاكرة الهويّة اليهوديّة العربيّة، ومشروعات نسيانها وإسكاتها كذلك، كما اختبرها جدّا الكاتب.

الجدّ "أوسكار" مغربيٌّ مصريٌّ عاش شبابه في مصر، والجدّة دايدا تونسيّة الأصل. من خلالهما، يضعنا حيّون أمام مشاهدَ مختلفةٍ تتعلّق بتحوّلات الهويّة ما قبل النكبة وبعدها، بدءًا من الوعي بالهوية العربيّة كمظلّةٍ تجمع المسلمين والمسيحيين واليهود في بوتقةٍ

* مرشحة لنيل درجة الدكتوراة في العلوم الاجتماعية من جامعة بيرزيت.

واحدةٍ، فالتمزّق وبدء تفتيت الفضاءات المشتركة بشرخ اليهود العرب في أوطانهم عن أقرانهم الآخرين بفعل "التحديث" الاستعماريّ، فالانعطافة الصهيونيّة التي مارست إسكاتًا قسريًا تجاه عروبة اليهود العرب، ومن ثمّ البحث عن صيغةٍ هوياتيّةٍ جديدةٍ تضمن لهم العيش ضمن المجموع في منافيهم البعيدة عن أوطانهم. يمضي الكاتب قدمًا، على مدار كتابه المكوّن من ستة فصول، في تثبيت انحيازه إلى تلك الهويّة الهجينة الغنيّة دون التضحية بأحد أركانها، مُقرًّا أنّ يهوديّته "تعدّل" من عروبته، وطامحًا إلى إعادة بنائها على أساس عروبةٍ تحرريّةٍ ترفض الصهيونية والاستعمار.

بواكير "تغريب" اليهوديّ العربيّ

يعود بنا حيون إلى الجزيرة العربيّة، مهد العربيّة والإسلام، ليرينا أنّ الهويّة اليهوديّة العربيّة لم تتكرّس في زمنيّات الحداثة، بل تجلّت بقوّةٍ في القبائل الحميريّة وتعايشتْ مع المسلمين. لا يسعى الكاتب، بذا، إلى الحفر في الوجود التاريخيّ لليهود العرب، على قاعدة "من جاء أوّلًا"، في سبيل برهنة صحّة هويّته اليهوديّة العربيّة، بل إلى التشديد على أنّ طاقة العروبة أوسعُ من أن يتمّ حصرها وتجميدها في هويّة دينيّة محدّدة كالإسلام.

يصحبنا الكاتب في رحلةٍ إلى ماضي جدَيْه في كلٍّ من الإسكندرية بمصر والمهديّة بتونس، لنتلمّس عمق اندماجهما في المجتمعَيْن العربيَيْن. تجمع عائلة جدّته التونسيّة "بوخبيزة" علاقاتٌ متينةٌ بعائلة مسلمة تُدعى "بو رمضان"، والتي تتقاسم معها طقوس شهر رمضان كظاهرة ثقافيّة عابرة للأديان. تظهر "بوخبيزة" كعائلة منتمية إلى طبقة من اليهود الأثرياء التي ترسم حدود انفصالها عن عرب يهود آخرين في "الحارة" أو الطبقات العاملة في المدينة القديمة، بل ستصكّ هويّتها باعتبارها متحدّرةً من اليهود التونسيين الأصليين، خلافًا لمجتمعات "قرانة" اليهوديّة (Grana Communities)) التي وَفدتْ إلى البلاد في القرن السابع عشر من إيطاليا وإسبانيا والبرتغال. بالمقابل، عاشت تاريخيًّا عائلة جدّه أوسكار في الإسكندريّة التي لطالما اعتُبرت معقلًا لليهود من أصولٍ مختلفةٍ، وفقَ مستوىً عالٍ من التعاضد مع المكوّنات الإسلاميّة والمسيحيّة، قُبيلَ شقّها عدّة استراتيجيّات لإخفاء هويّتها اليهوديّة إبّان النكبة.

يكشف لنا حيون فصلًا مهمًا من فصول التحوّل على صعيد الهويّة العربيّة اليهوديّة من جهة العمل على بثّ التناقض والشقاق بين عنصرَيْها العربيّ واليهوديّ، وإقناع المنتمين إليها بتعذّر الجمع بين هذه المركّبات. تظهر في النصف الأول من القرن العشرين شبكةُ مدارس "الإليانس"- الاتحاد الإسرائيليّ العالميّ (Alliance Israelite Universelle) في عددٍ من الدول العربيّة، لتساهم ليس فحسب في فصل اليهود العرب عن نظرائهم من المسلمين والمسيحيين، إنّما تتّخذ من الفارق الطبقيّ مرتكزًا في فصل اليهود المقتدرين عن المهمّشين، وتحمل على عاتقها مهمّة "تحضير" اليهود العرب وتخليصهم من "الروح الشرقيّة البربريّة".

تشكّل هذه السياسات التغريبيّة لليهوديّ العربيّ منعطفًا حاسمًا في حياة كلٍّ من أوسكار ودايدا، ليسيرا في طريق الانسلاخ عن جذورهما العربيّة، ويخلعا لباسهما الثقافيّ الذي يجمعهما بمحيطهما، متّجهَيْن إلى ارتداء العباءة الأوروبيّة وتحوُّل لسانيهما إلى اللغتين الإنكليزيّة والفرنسيّة. هدِفتْ المدارس من وراء هذه السياسة إلى تحويل انتماء روّادها إلى "الأمّة الأوروبيّة"، واستخدامهم في سبيل استعمار أقرانهم العرب الآخرين وقمعهم، لتشغّل بعضهم كمخبرين "أصليين"،[1] كما تمّ في الجزائر على إثر منحهم المواطنة الفرنسيّة الكاملة بموجب "مرسوم كريميه" الحكوميّ الفرنسيّ لعام ١٨٧٠.

الصهيونيّة مُطهّرةً لعروبتهم

يشير حيون إلى أنّ الصهيونيّة كانت لتشقّ طريقها من الصفر في الوطن العربيّ لولا منظومة "الإليانس" آنفة الذكر، كاشفًا أنّ مفهومًا من مثل "أمّة بني إسرائيل" أو "الشعب اليهودي" لم يكن من ضرْبِ البداهة لدى جدَيْه. أوهمتْ المنظومةُ جدَيْه بأنّ اليهود جميعهم المتناثرين في أصقاع العالم يوحّدهم ألمٌ تاريخيٌّ متمثّلٌ في معاداة السامية التي جرى تصويرها كرابطةٍ عضويّةٍ بوسْعها صياغة اليهود كـ"شعب" واحدٍ بمصيرٍ واحدٍ، ليفترض باليهود العرب الشعور بأنّ ما يوحّدهم مع اليهود الأوروبيين أعمق بكثير ممّا يجمعهم بأبناء أوطانهم العرب. في ضوء هذا، يوجّه الكاتب نقدًا حاسمًا للصهيونيّة من منطلق تصويرها لذاتها كتتويجٍ للنضال اليهوديّ القديم ضدّ

يشير حيون إلى أنّ الصهيونيّة كانت لتشقّ طريقها من الصفر في الوطن العربيّ لولا منظومة "الإليانس" آنفة الذكر، كاشفًا أنّ مفهومًا من مثل "أمّة بني إسرائيل" أو "الشعب اليهودي" لم يكن من ضرْبِ البداهة لدى جدَيْه. أوهمتْ المنظومةُ جدَيْه بأنّ اليهود جميعهم المتناثرين في أصقاع العالم يوحّدهم ألمٌ تاريخيٌّ متمثّل في معاداة السامية

معاداة السامية وتحقيق وحدة المصير، ليحجب هذا حقيقةَ تشكيلها باستمرارٍ تفوّقَ اليهودي الأوروبيّ على نظيره العربيّ والشرقيّ، بل ودفْع الأخير إلى معاناة جديدة يقاسيها إثر هويته التي تتعارض مع الهويّة المعياريّة للصهيونيّة بطابعها الغربيّ.[٢]

مع ذلك، يبيّن حيون أنّ الصهيونيّة السياسيّة قبل النكبة لم تكن عقيدة معظم اليهود العرب في كلٍّ من مصر وتونس، إنما انصاع بعضهم أيديولوجيًّا إلى ما يسمّيها "صهيونيّة دون إدراك".[٣] ومع حلول النكبة، تبدّلتْ علاقة بعضهم الملتبسة تجاه الصهيونيّة إلى التزام حقيقيّ بمشروعها على الصعيدَيْن السياسيّ والدينيّ، فيما عكسَ رحيل آخرين عن أوطانهم باتجاه الدولة الصهيونيّة هاجسًا متصاعدًا من تكاثُف العداء القوميّ العربيّ إزاءهم، على إثر توليد النكبة مزاجًا عامًا معاديًا لليهود العرب. يجادل حيون بأنّ عجز النظم السياسيّة العربيّة عن مواجهة الصهيونيّة جرى تفريغه نحو رعاياها من اليهود العرب، لتعتبرهم الوجه عينه من المكوّن الصهيونيّ.

ففي حين لم يكن ثمّة تعارضٌ بين الانتماء إلى العروبة والإسلام أو المسيحيّة في آنٍ، مرّت اليهوديّة بسيرورةٍ مغايرةٍ في الوطن العربيّ بعد النكبة، على وقْع تكريس القوميّة العربيّة صعوبةَ الدمج بين اليهوديّة والعروبة، بل وجرى التنكّر لعروبتهم بفعل التعامل مع يهوديّتهم كقوميّةٍ مؤيّدةٍ للصهيونيّة. في ضوء ذلك، اضطر جدّ الكاتب أوسكار عام ١٩٤٩، تارةً، إلى إخفاء هويّته اليهوديّة أثناء عمله وتنقّله بين الأرياف، وطورًا عُوقبَ على هويّته أثناء إقامته في أحد الفنادق، ليصبح غير مُرحّبٍ به ويُدعى إلى المغادرة فورًا. نزعتْ الصهيونيّة، عبْر الاستثمار في ذلك الهاجس، إلى ممارسة الاتّجار بالبشر، ليركب كثيرٌ من اليهود العرب البحرَ دون أن يعلموا وجهة السفن التي تقلّهم. أمّا في ما يتعلق بمصير جده الذي انتابه الخوف من البقاء في وطنه تزامنًا مع تأثّره بطروحات منظمة "الحارس الشاب" الصهيونيّة التي تغلغلتْ بين اليهود العرب في مصر، فلقد اتّجه وعائلته إلى الدولة الصهيونيّة بعدما تنازلَ جميعهم عن جنسياتهم، ونقلوا أصولهم إلى الحكومة، وقطعوا عهدًا رسميًّا بعدم العودة إلى مصر.

سترسو سفينتهم في ميناء حيفا، وفورَ أنْ تحط أقدامهم هناك، سيُستقبلون برشّ المبيدات الحشريّة على أجسادهم، ويُحتجزون في معسكرات العبور بذريعة بدائيّتهم الثقافيّة التي ستستوجب من الدولة الصهيونيّة محوها بعنف، بغية ضمان عبورهم إلى الحضارة الغربيّة. سيتلاشى عند أوسكار، حينئذٍ، حلمُ المصير اليهوديّ الواحد الذي صاغته الصهيونيّة، ويُوقِن أنّ اليهود العرب لم يكونوا سوى أداةٍ ديمغرافيّةٍ استعانتْ بها الصهيونيّة لتحقيق رؤيتها الأوروبيّة. يتقاطع هذا مع ما تطرحه الباحثة اليهوديّة العراقيّة "إيلا شوحاط" حول أنّ الصهيونيّة صدّرتْ ذاتها بكونها "حركة تحرّر" لليهود الأوروبيين فقط؛[٤] إذ حيَّدتْ تمامًا عمليّة تخيّلها الهويّةَ المعياريّةَ لـ"اليهوديّ الجديد" عن أنْ تكون متحدّرةً من أصولٍ عربيّةٍ أو شرقيّةٍ، لتمارس إزاء غير الأوروبيين هيمنةً اقتصاديةً وقمعًا لذاكرتهم الأصليّة، بهدف تقويض السمة الشرقيّة أو العربيّة إلى دولتها وانتسابها إلى العالم الثالث.[٥]

على إثر هذا التمييز والفوقيّة تجاههم، سيحمل أوسكار أمتعته وحيدًا، مغادرًا الدولةَ الصهيونيّة إلى

لم يسعَ أوسكار ودايدا وابنتاهما إلى حجب عروبتهم فحسب، بل لطالما اضطرّ الأول إلى حجب يهوديّته في أميركا حينما انجذب إلى صداقاتٍ عربيّةٍ افترضتْ تارةً إسلامه وطورًا هويّته المسيحيّة. فبعد عام النكبة، لم يستطع أحدٌ الادّعاء بكونه يهوديًا عربيًا دفعةً واحدةً؛ إذ حلَّ توجّسٌ ضمنيٌّ عربيٌّ من اليهود، ليُخالوا حصرًا كصهاينة أجهضوا الحلم العربيّ.

فرنسا، وتاركًا خلفه والده يعقوب وشقيقته فيفيان. ستعمل فيفيان جاهدةً في خمسينيات القرن الماضي على العبور إلى الهويّة الغربيّة ونسيان عالم العروبة والشرق، لتصبغ شعرها بالأشقر، وتنادي أسرة زوجة أوسكار "بوخبيزة" بـ"ليفي" حينما يزور يومًا أوسكار ودايدا الدولة المحتلّة، فيما سيودّع يعقوب الحياة في ذلك العقد ويُوارى الثرى هناك. بالمقابل، قطعت عائلة دايدا التونسيّة العهد على نفسها بعدم الذهاب إلى فلسطين فورَ رحيلها عن بلادها، لتتجه إلى الاستقرار في فرنسا.

الحجب المزدوج في أميركا

في الفصل السادس والأخير من الكتاب، تحت عنوان "الذاكرة"، يُرينا حيّون أنّ الصهيونيّة واللعبة الاستعماريّة السابقة عليها لم تجنِ ضحاياها من اليهود العرب في داخل نطاق دولتها فقط، إنّما حفرت عميقًا فيمن عاشوا حياة المنفى القسريّ خارج أوطانهم. إنّ جدَيْه أوسكار ودايدا اللذَيْن حطّت أقدامهما أميريا عام ١٩٥٦، قد ارتدّا عن العروبة واتّجها نحو الأمركة، مُعتبرَيْن محاولةَ تخيّل ماضي انتمائهما ضمن الهويّة العربيّة بمثابة إعادة إنتاجٍ للطمس الذي مارسته الهوية الأشكنازيّة إزاء إرثهما الغنيّ في كلٍّ من مصر وتونس.

هذه العلاقة الغريبة والمربكة من نفي عروبتهما، تحديدًا من قِبل دايدا، مقابل الانحياز إلى هويتها التونسيّة – أنا يهوديّة تونسيّة لكنّني لست عربيةً[٦] هي ما جعلتها تعتبر سؤال الكاتب حيّون حينما كان طفلًا ما إنْ كانوا عربًا، بمثابة اعتداءٍ على هويتها وإهانةٍ على طريق الأشكناز. فالأخيرون، بنظرها، عملوا على تخيّلها وأمثالها عربًا بغية إنتاجهم علامةً ثقافيةً يتمايزون من خلالها عنهم، وتضمن تفوّقهم "العرقيّ" بتعيين أمثال دايدا ضمن صنافيّة "الآخر" التي يجري من خلالها تثبيت تعريف الذات اليهوديّة القوميّة الجديدة، ونقلها إلى مصافٍ غربيٍّ عالٍ.

لم يسعَ أوسكار ودايدا وابنتاهما إلى حجب عروبتهم فحسب، بل لطالما اضطرّ الأول إلى حجب يهوديّته في أميركا حينما انجذب إلى صداقاتٍ عربيّةٍ افترضتْ تارةً إسلامه وطورًا هويّته المسيحيّة. فبعد عام النكبة، لم يستطع أحدٌ الادّعاء بكونه يهوديًا عربيًا دفعةً واحدةً؛ إذ حلَّ توجّسٌ ضمنيٌّ عربيٌّ من اليهود، ليُخالوا حصرًا كصهاينة أجهضوا الحلم العربيّ. امتدّت مساعي الإخفاء والطمس هذه إلى الحياة المعاصرة للكاتب نفسه، ليروي بجرأةٍ تجربة عمله الصحافيّ وسط محيطٍ عربيٍّ دفعه الخوف من إقران هويّته اليهوديّة بالصهيونيّة إلى ممارسته قمعًا ذاتيًا بحقّ الجهر بهويّته اليهوديّة.

لاحقًا، ستكون أحداث الحادي عشر من أيلول لعام ٢٠٠١ بمثابة إنذارٍ لأوسكار ودايدا بضرورة تعميق فصل ذاتيهما عن العرب. فبينما وُصمَ العرب والمسلمون بـ"الإرهاب العالميّ"، قطعتْ الأسرة أيّ إشارةٍ إلى تفوّهها أحيانًا بالعربيّة، وتوقّفَ أوسكار عن منح حفيده الكاتب دروسًا باللغة العربيّة. انسحبتْ الأسرة أكثر إلى تثبيت انتمائها إلى الهويّة الأميركيّة، لتعلّق مزيدًا من الأعلام الأميركيّة على شرفة منزلها، خشيةً من اعتبار تجاهل التعبير عن الوطنيّة الأميركيّة حجّةً عليها تصمها بـ"الإرهاب". يرى حيّون أنّ ترسيخ محو الأسرة عروبتَها تَوازَى حينئذٍ مع محاولاتها إخفاءَ

يهوديّتها؛ إذ لم ينتِج خطاب الكراهية ضحايا مسلمين فقط، بل امتدّ أحيانًا إلى العالم اليهوديّ، ليتحقّق بذلك حجبٌ مزدوجٌ لأركان هويّة الأسرة اليهوديّة العربيّة، وينتُج شكلٌ من محاولة الانتماء المحض إلى الهوية الغربيّة الأميركيّة.

حول تحوّلات الهويّة

تأسيسًا على ما سبق، يمكننا اعتبار التغيّر المتواتر في معنى هويّة الجدَيْن الموضوعَ الأبرز في الكتاب، الذي يمكننا فهمه من مفارقة الهوية/الاختلاف، بحسب الباحثتين "جينيفر تود" و"باهار روميلي". تقضي المفارقةُ بأنّ انتماء المرء إلى مجموعةٍ ما متّصلٌ بالضرورة بتحديد اختلافه وتمايزه عن فئاتٍ أخرى،[٧] ليستحيل ما يشكّل تاريخيًّا عنصرًا مركزيًّا في هويّةٍ ما، "الآخرَ" بالنسبة لها حينما تنزاح إلى هويةٍ جديدةٍ. فمثلًا، في مطمح جدّيْ الكاتب حيون إلى أنْ يمثّلا جزءًا من "الأمة الأوروبيّة" ذات الحظوة الطبقيّة والاجتماعيّة الأعلى في زمن شبكة مدارس "الإليانس"، باتت العروبةُ مُمثَّلةَ "الآخرِ" التي من خلالها يعلنان تمايزهما عنها في تشكيل هويتهما الجديدة. أمّا حينما سعى أوسكار، في مرحلةٍ ما، إلى إحقاق انتمائه إلى "الشعب اليهوديّ" المتخيّل، لم يجرِ تحويل عنصره العربيّ إلى "آخرِهِ" المتمايز عنه "عرقيًّا" وطبقيًّا فحسب، بل أيضًا إلى عدوّه القوميّ الذي يعلن من خلاله انتماءَه إلى القوميّة اليهوديّة الاستعماريّة.

يسلِّم حيون عمومًا بأنّ الهويّات لم تتمحور يومًا حول مرجعيّةٍ طبيعيّةٍ أصليّةٍ، بقدر ما تتشكّل في خضمّ السياقيّة البنائيّة على المستويَيْن الفرديّ والجماعيّ. يحيل هذا، من جهةٍ، إلى رغبة الأفراد في إعادة تعريف أنفسهم وفق مشاريعهم الفرديّة واحتمالات الفعل الممكنة وغير الممكنة. من جهةٍ أخرى، لا يمكن اعتبار تحوّلات الهويّة مجرّد آلياتٍ نفسيّةٍ نابعةٍ من الفرد فحسب، بل هي عملياتٌ اجتماعيّةٌ بالدرجة الأولى تتأثّر بالنظم القائمة في الدولة وخطاباتها،[٨] فيتغيّر معنى العلاقات وحدودها الفاصلة بين الهويات القائمة.[٩]

على هذا الأساس، يمكننا الإفادة من مقاربة الباحث "ديفيد ليتين "حول العنف، الدولة، الهوية، في فهم تحوّل هوية الجدَيْن باتجاه الوطنيّة الأميركيّة،[١٠] التي تقضي بأنّ الهويّة تنشأ نتيجة ديناميكيّات المجموعة، لتنجذب الأخيرة إلى مبدأ المصلحة في الاتجاه إلى لغةٍ معينةٍ، والانخراط في اقتصادٍ مختلفٍ، وتوجّهٍ ثقافيٍّ ما. بذا، فإنّ إبدال أوسكار ودايدا ولاءَهما للعروبة بالوطنيّة الأميركيّة يُعزى، من جهةٍ، إلى تطلّعهما لحيازة مكانةٍ أعلى ضمن التراتبيّات السوسيواقتصاديّة في بلاد العم سام، ومن جهةٍ أخرى، يعود عند دايدا تحديدًا إلى تذويتها ضرورةَ التمايز عن العرب "المتدنّين ثقافيًا وعرقيًا" بغية التمتع بحظوات اجتماعيّة مُثلى في البلاد الغربيّة.

الطريق إلى العروبة التحرريّة

يوجّه حيون، في كتابه، نقدًا لمن يختزل اليهود العرب في كونهم "مزراحيم" (يهودًا شرقيين) أو "سفاراديم" (يهود إسبانيا والبرتغال)، معتبرًا مثل هذه التسميات طمسًا متعمّدًا لعروبتهم، ليجادل بأنّه، كيهوديٍّ عربيٍّ، لا يمكن اختزاله بكونه متحدّرًا من شرقٍ متخيّلٍ من قِبل غربٍ متخيّلٍ، أو مكانٍ ما من الشرق الأوسط أو شمال أفريقيا.[١١] ينسجم الكاتب، بذلك، مع اعتقاد الباحث "يهودا شنهاف" بأنّ عملية نزع التعريب التي مارستها الصهيونيّة بمعياريّتها الأشكنازيّة تجاه اليهود العرب، كانت في جوهرها "شرقنةً" لهويّتهم العربيّة أكثر من كونها محوًا كاملًا لثقافتهم العربيّة.[١٢] حوّلت تلك "الشرقنة" اليهودَ العرب إلى صنافيّةٍ تُعادِل الطائفة الفلكلوريّة أو القبيلة، لتنزع عنهم السمة السياسيّة، وهو ما ينبذه حيون، داعيًا إلى معنىً سياسيّ للهويّة اليهوديّة العربيّة في الفضاءات المستقبليّة. يقرّ الكاتب بأنّه يحيا كيهوديّ عربيّ ضمن الماضي وكذلك المستقبل، لينحاز إلى الفاعلية الإنسانيّة في تقرير هويةٍ تبدو مستهجنةً من قبل الجمهورَيْن العربيّ أو الصهيونيّ اليوم.

تأسيسًا على استعادة الهويّة تلك، يطرح الكاتب سؤالًا مهمًا متعلقًا بكيفيّة بناء عروبةٍ جذريّةٍ تحرّريّةٍ مشتركة دون الوقوع في ما يسميها "شرك القوميّة القبليّة".[١٣] يجد حيّون أن هذا ليس ممكنًا دون التخلّص من كلّ البنى الاستعماريّة التي شوّهت معنى العروبة وجعلتها صنوًا للرجعيّة والعبوديّة للغرب، تخلو من أيّ معانٍ للاستقلال الهوياتي والكرامة. كما يرى العروبة المتطلّع إليها من وراء هذا الكتاب ليست مجرّد مبنىً هوياتيٍّ ينحصر في اللغة المشتركة والإرث الثقافي المشترك،

إنّما يتخطّى ذلك إلى انتماء المجموع العربي إلى هدفٍ سامٍ يتمثّل في التحرّر من الاستعمار والتبعيّة، ومقاومة الاستبداد المحليّ. تناقِض هذه المساعي الممارساتِ التاريخيّةَ للقوميّة العربيّة العلمانيّة بحقّ الاختلافات الدينيّة والإثنيّة بين العرب، التي بدورها أعادت إنتاج المفاهيم الغربيّة للعرق لدعم الهويّة العربيّة المتجانسة المتخيّلة.

يعتبر حيون أنّ السياسات الاستعماريّة التي حالت دون أن يكون جدّاه عربيَيْن تمثّلتْ، بالدرجة الأولى، في حرمانهما من إحقاق تضامنهما مع العالم العربي "أنا عربيّ لأنه ما قيل لي ولوالدي ألا نكون، على مدى أجيال، لمنعنا من العيش في تضامن مع العرب الآخرين".[14] إنّ أيّ تصوّرٍ مستقبليٍّ يطرحه الكاتب حول إعادة إدماج الهوية اليهوديّة العربيّة في كنف العروبة، لا بدّ أن يصطدم بالصهيونيّة ويعمل تلقائيًا على تفكيك الثنائيّة الراسخة التي أنتجتها، والقاضية بتخيُّل اليهوديّة كقوميّةٍ تنفي العروبة وتعاديها بالضرورة، لينحاز حيون إلى إعادة إرساء اليهوديّة كديانةٍ فقط تتعايش مع الهويّة العربيّة التحرّريّة التي تحتويها "عربيّتي ثقافيّة، أفريقيّة، يهوديّة، بل وانتقاميّة أيضًا".[15]

تناقضات الكتاب

في ضوء ما سبق، يؤمن حيون أنّ إحياء الهويّة اليهوديّة العربيّة ضمن فضاءات المستقبل، يستدعي بالدرجة الأولى الامتثالَ إلى تفكيك الاستعمار من داخل الدولة الصهيونيّة. يرى أنّه لطالما ثمّة من يعرّف نفسه كعربيٍّ يهوديٍّ اليوم، فإنّ هذا قد يؤسّس لتضامن ثقافي مع المجموع العربي، يتجاوزه إلى خطاب سياسيّ مشترك يرفض الصهيونيّة. وإذ يستدعي حيون، في التدليل على ذلك، بعضَ الفرق الغنائيّة اليمنيّة التي استعادت الثقافة العربيّة في غنائها داخل نطاق الدولة الصهيونيّة، غير أننا نراه متغافلًا عن تغييراتٍ سياسيّةٍ متواترةٍ تحلّ راهنًا في الدولة الاستعماريّة، ترتبط تحديدًا بظاهرة "شرقنة اليمن" و"يمننة الشرق"، بحسب توصيفات الباحثة هنيدة غانم.[16] تحمل تلك الظاهرة استيعابًا يمينيًا للثقافة الشرقيّة في الرواية الصهيونيّة الجديدة اليوم، مُندرجةً بذلك ضمن سياسات الهوية التي تستغلّ شعور اليهود غير الأوروبيين بالغبن التاريخيّ جّراء سياسات النخبة الأشكنازيّة الطلائعيّة التي قمعتْ ثقافتهم بموجب بوتقة الصهر الغربية الدافع، وذلك بغرض كسب أصوات اليهود العرب والشرقيين لصالح اليمين الصهيونيّ.

يمكننا قراءة مظاهر العودة إلى التراث العربيّ كشكل من أشكال تَخْييل اليمين الصهيونيّ له كتراثٍ ثقافيٍّ شرقيٍّ بوسعه أن يتعايش مع الهويّة اليهوديّة، خلافًا لما كانت تقضي به الصهيونيّة الطلائعيّة من تعارض الوفاق بين العروبة واليهوديّة من الناحيَتَيْن الثقافيّة والعرقيّة، على اعتبار أنّ اليهوديّة القوميّة الحقّة متفوّقةٌ الهويّة لأوروبيّتها. لا يقدّم هذا، كما تصوّر حيّون، احتفاءً بالهويّة اليهوديّة العربيّة كهويّةٍ هجينةٍ يعبُرُ أصحابها الحدودَ الصارمةَ التي فرضتها الصهيونيّة بين العروبة واليهوديّة،[17] بل تظلّ تلك الحدود راسخةً في تناقضات الطاقة الليبراليّة التي تفتحها الصهيونيّة ذات المركزيّة اليمينيّة، من جهة تصوير ذاتها كقوّةٍ تستوعب للمفارقة التعدديّةَ الثقافيّة ضمن قوميّتها الطائفيّة المنغلقة على ذاتها.

وفي حين تمتصّ هذه القوميّة رغبةَ اليهود العرب والشرقيين الصهاينة في إعادة التواشُج مع العروبة/الشرق من مدخل ثقافي/فلكلوريّ طقوسيّ مميّز، فإنّها بالضرورة تكرّس نبذهم وعداءهم للعروبة كصيغةٍ قوميّةٍ مهدّدة لقوميّتهم، تحت صدحهم بشعار "الموت للعرب". بكلماتٍ أخرى، يمكن اعتبار ارتداد اليهود العرب إلى الثقافة العربيّة شكلًا من أشكال الاعتراض على الهيمنة الثقافيّة على الصهيونيّة بمعياريّتها الغربيّة، وليس بالمطلق كاعتراضٍ عليها كمنظومةٍ استعماريّةٍ تستبطن محوًا ممنهجًا للهويّة اليهوديّة العربيّة المتناتجة في فضاءات الماضي في بلادنا العربيّة.

الخاتمة

في ظلّ تصوير اليمين الصهيونيّ، اليوم، بدءَ مرحلةٍ جديدةٍ من إعادة استيعاب تاريخ يهود الدول العربيّة والإسلاميّة ضمن الرواية الوطنيّة الصهيونيّة، بعد عقودٍ من كتابة تواريخهم على هامشها، تبدو راهنيّة هذا الكتاب مستلّةً من تبيانه أنّ سياساتِ إعادة الاستيعاب تلك لا تعدو إعادة إنتاجٍ لنسيان تاريخ اليهود العرب في أوطانهم. فبينما تموضع الصهيونيّة المنخرطة في

"شرقنة اليمين" تاريخَ اليهود العرب ضمن تاريخ معاداة الساميّة الأوروبيّة ومأساة "الشعب اليهوديّ" أجمع الذي ينتظر الافتداء الصهيونيّ،[18] يبرهن الكتاب من خلال ذاكرة الجدّين والكاتب وانعطافات هويّاتهم أنّ تاريخ اليهود العرب أعقدُ من اختزاله إلى محض سرديّةٍ أحاديّةٍ تتجاوز تعقيدات تفاعلاتهم في الواقع العربيّ باتجاه إخضاعهم قسرًا إلى سرديّة تعرّضهم للاضطهاد ومظلوميّة معاداة الساميّة هناك.

تهدف السرديّة الأخيرة، التي يمتثل لها النهجُ الجديد في تضمين تاريخ اليهود العرب في الرواية القوميّة الاستيطانيّة، إلى إمحاء الفاعليّة التاريخيّة للمشروع الصهيونيّ في تكريسه سياسات فصل اليهود العرب عن مجتمعاتهم الأصليّة. تتبدّى أهميّة الكتاب في استئنافه على ذلك السرد التبسيطيّ المتجانس، عبْر تبيانه تجاربَ عدّةً من اندماج اليهود العرب في محيطهم العربيّ، وسيرورة استخدامهم من قبل الصهيونيّة لتمكين مشروعها جغرافيًّا وديمغرافيًّا. وكون حيّون لم يسعَ إلى تعميم تجربة جدَيْه في مصر وتونس، ومسار التحوّل الهوياتيّ الذي شكّلهما، على بقيّة اليهود العرب، انطلاقًا من عدم تشكيلهم فئةً واحدةً متماثلةً، فإنّ تحوير تعدديّة "حقائق" واقعهم المعيش في بلدانهم السابقة إلى "حقيقة" اضطهادٍ عربيٍّ محض في تلك الرواية الجديدة، لا يبدو سوى تبريرٍ للعمل المنهج على صهينتهم، وإعادة إنتاج فصلهم عن فضاء العروبة الذي كانوا منتمين إليه سابقًا.

من ناحيةٍ أخرى، يمكن القول إنّه في ظلّ موجاتٍ متواترةٍ من التطبيع العربيّ مع النظام الاستيطانيّ الصهيونيّ، فإننا نلحظ طريقًا لتبريرها يسترشد بتشكيل اليهود تاريخيًّا جزءًا أصيلًا من النسيج الاجتماعيّ العربيّ، لكن دون أن تكون استعادة معنى كينونة اندماجهم ضمنه ناتجةً عن حنينٍ إلى فضاءٍ عروبيٍّ يرفض حالة الاستعمار والتبعيّة للغرب، ويدعو إلى تفكيك المشروع الصهيونيّ، إنّما ناتجة عن استجداء لتعايشٍ يهوديٍّ عربيٍّ تحت مظلّةٍ ممسوخةٍ من العروبة يُنزَع عنها البعد السياسيّ خلا الخضوع إلى الصهيونيّة.

نستنتج، بذلك، أنّ "عودة" بعضِ اليهود العرب سُيّاحًا مُرحّبًا بهم من قِبل الأنظمة التطبيعيّة، تنطوي على تكريس التطهّر من العروبة بمعناها الجديد كقوميّةٍ مناوئةٍ للصهيونيّة، مقابل تحويلها إلى مكونٍ ثقافيٍّ "مختلفٍ" يستأهل الانكشاف عليه واستيعابه ضمن سياسات التعايش المتقدّمة. أمّا "عودتهم" الحقّة فيتعذّر إحقاقها دون تشكيل العروبة طاقةَ جذبٍ تتغلّب على الصهيونيّة عسكريًّا وسياسيًّا واقتصاديًّا، لينهي حيّون كتابه باستعادة عودته وأمّه إلى تونس ليقتفيا أثر رايدا التي رحلت قبل أعوامٍ قليلةٍ، وكأنّ هذا بمثابة إعلانٍ عن إحيائهما الهويّة اليهوديّة العربيّة بمعناها السياسيّ الرافض للاستعمار بكافة أشكاله: "إنّنا نتذكّر حينما كنّا عربًا، وسنظلّ كذلك في المستقبل... تعبُر الهوية البحار والمحيطات، فيما تُنزع جنسية المرء في غضون دقيقةٍ واحدةٍ".[19]

الهوامش

1 Massoud Hayoun, When We Were Arabs: A Jewish Family's Forgotten History (New York: The New Press, 2019), 107.

2 Ibid, 193.

3 Ibid, 168.

٤ إيلا شوحاط، "اليهود الشرقيّون في إسرائيل: الصهيونيّة من وجهة نظر ضحاياها،" مجلة الدراسات الفلسطينية ٣٦ (١٩٨٨): ١٠٦.

٥ المصدر السابق نفسه، ١٠٦.

6 Hayoun, When We Were Arabs, 236.

7 Jennifer Todd and Bahar Rumelili, "Paradoxes of identity change: Integrating macro, meso and micro research on identity in conflict process," Politics 1 (2018(.

٨ دوناتيلا ديلا بورتا، ماريو ديانّي، الحركات الاجتماعيّة (الملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي، ٢٠١٧)، ١٣٣.

9 Todd and Rumelili, "Paradoxes of identity change," 4.

10 David D. Laitin, Nations, States and Violence (Oxford: Oxford University Press, 2007).

11 Hayoun, When We Were Arabs, 9.

12 Yahouda Shenhav and Hannan Hever, "Arab Jew's after structuralism: Zionist discourse and the (de)formation of an ethnic identity," Social Identities 1 (2012): 109.

13 Hayoun, When We Were Arabs, 237.

14 Ibid, 10.

15 Ibid, 10.

١٦ هنيدة غانم، "اليمين الجديد في إسرائيل يحكم سيطرته على حاضر إسرائيل ومستقبلها،" تقرير مدار الاستراتيجي (٢٠١٧): ٢٦.

17 Shenhav and Hever, "Arab Jew's after structuralism," 109.

18 Lior Sternfeld and Menashe Anzi, "Israel is rewriting the history of middle eastern Jews for propaganda," 2 December 2019.

19 Hayoun, When We Were Arabs, 239.